الفصل الخامس

العنف والسياسة

القول البارز **لروسو** في اعترافاته :" إن الحقيقة الكبرى التي يمكن أن تغير الجنس البشري تعود بشكل أساسي إلى السياسة." ويقول أيضاً: " أي شعب ليس إلا ما تريده طبيعة حكومته أن يكون". روسو صاحب العقد الاجتماعي، يرى أن المنافسة والحروب والعيوب الإنسانية حدثت في المجتمعات المدنية فطبيعة الإنسان كانت خيرة ولكن البيئة الاجتماعية هي التي تغير الإنسان .

أو كما قال **الكواكبي** في كتاب طبائع الاستبداد: "الأخلاق أثمار بذورها الوراثة، وتربتها التربية، وسقياها العلم، والقائمون عليها هم رجال الحكومة. بناء عليه تفعل السياسة في أخلاق البشر، ما تفعله العناية في إنماء الشجر". في العلاقات السياسية تضيع الكثير من النواحي الإنسانية المهمة في الحياة، ويتحول الأفراد إلى أسماء لها قيمة فقط داخل صناديق الاقتراع.

والاتجاهات السياسية قد تحقق للأفراد الاستقرار الأمني، و العدالة الاجتماعية، والمساواة في الحقوق؛ أو ربما تكون على عكس ذلك فتتسبب بالفوضى، وإثارة الشغب، ونشر الفساد. وكل حوادث العنف ذات الطابع السياسي يتم تبريرها لاحقاً على أسس واعتبارات اجتماعية أو أيديولوجية، فالعنف الذي تغذيه السياسة دائماً يوجد له المبررات، حتى ولو كانت مبررات واهية وغير منطقية. والسياسات الهادفة تعمل على توجيه الرأي العام بما يخدم

مصالحها، حتى ولو تسببت بالدفع نحو استخدام القوة وإثارة الشغب والفوضى.

والسياسة هي خاصة من خصائص الدولة في المجتمعات المعاصرة، فالحكومات تسيطر على اقتصاد المجتمع وعلى البرامج الثقافية والتربوية وعلى التنمية بشكل عام، ولا يمكن لأي مجتمع أن ينهض دون خطة سياسية، أما إذا كانت الحكومات ضعيفة وتفتقر إلى الحكمة وخطط التغيير الصحيحة أو إذا كانت لا تملك الإرادة لأنها مرتهنة للدول الكبرى أو للشركات الكبرى، لا يمكنها تحقيق العدالة والأمان لمواطنيها، ولا التخفيف من انتشار العنف على أراضيها. فالإمساك بالأمن ضرورة لحماية المواطنين. والإمساك بالأمن يختلف عن البطش، أو العقل السياسي التسلطي، فالعقل التسلطي يسبب اليأس ويقضي على المبادرات الخلاقة، ويسبب الفوضى الأمنية وعدم الاستقرار، وأكثر من هذا فالعقل السياسي التسلطي يعتمد على التحريض الذي يساهم في خلق حالات التعصب المقيتة بين الجماعات، لضمان استمرارية بعض الزعامات.

والتاريخ حافل بحكام وملوك منهم من كان مثالاً للفضيلة والعدالة، ومنهم من استولوا على السلطة وحكموا بالقوة عن طريق الخداع أو سفك الدماء، ومعظم الحكام الطغاة يقل تقديرهم للفضيلة ويزيد حبهم للمال، وهؤلاء الحكام الطغاة كان لا بد من أن يُواجهوا بالكراهية، - خاصةً إذا كانت غالبية الشعب فقراء- وليس من المستغرب إذا كثر عدد اللصوص والأشرار، والشر في هذه الحالة يعود إلى فساد الحكام. هذا الحقد الذي يسيطر على الناس ليس بسبب الطبيعة البشرية، بل هو بسبب أنانية وسؤ تصرف النخب المسؤولة، التي لا تسعى إلا لتنمية ثرواتها الخاصة، وتبادل المنافع بينها وبين رجال الأعمال، دون أن تهتم بتثقيف المواطنين وتحسين

أحوالهم. والحاكم الذي يزيد حبه للمال يقل تقديره للفضيلة؛ هذا ما قاله أفلاطون:"الثروة والفضيلة لا يجتمعان إذ بينهما ذلك الفارق الذي يجعل كفة إحداهما تنخفض كلما ارتفعت الأخرى، فإذا كُرمت الثروة والأثرياء في دولة ما، قل تكريم الفضيلة والفضلاء فيها حتماً."

أرسطو بحث عن أسباب الثورات وكانت له معاينة واقعية لطبيعة الأنظمة القائمة في عصره، فمنزلة الدولة بالنسبة له تفوق منزلة الأسرة، وغاية الدولة هي الحفاظ على الأفراد وتحقيق العدالة ونشر الفضيلة. أرسطو انتقد الطبقية ورأى أن الدولة المثلى يجب أن تجمع بين حكم الفقراء والأغنياء، ولكنه كان يفضل حكم الطبقة الوسطى أكثر من حكم الأغنياء أو الفقراء. أرسطو يرى أن الغنى الناتج عن الربا والاحتكار غير صالح للمجتمع، والحاكم الذي يسعى للفائدة الشخصية حكمه فاسد. وأسوأ أنواع الديمقراطية هي التي يتولى الحكم فيها أشخاص غير مؤهلين للحكم، فتصبح إرادة الحاكم فوق إرادة القانون. والحاكم المستبد حريص على أن يستمر الجهل بين الناس فالمعرفة بالنسبة له خطيرة، وهي تتعارض مع الخضوع. وعندما يكتشف الشعب مدى استغلال الحكام ستكثر الفتن والحروب.

ما المقصود بالعنف السياسي؟

أغلب الباحثين والدارسين يعرّفون العنف السياسي بأنه استخدام القوة المادية أو التهديد باستخدامها لتحقيق أهداف سياسية. وفي دراسة ظاهرة العنف السياسي لا يمكن الاعتماد على مصادر إقليمية أو دولية محددة، بل يجب جمع المعلومات بشأن الموضوع نفسه من مصادر مختلفة، دائماً هناك تعارضٌ في

تغطيــة الأحــداث، وهــذا الاخــتلاف يعــود لســبب الاختلافــات السياســية والأيديولوجية، وإلى انحياز بعض من ينجز التقارير لجهة دون أخرى.

وهناك بعض المؤشرات التي تدل على وجود العنف السياسي مثل الأحكام العرفية، والاغتيالات، وحظر التجول، والتعذيب، وما شابه. ولكن هذه الاحتمالات قد تتداخل أيضاً مثلاً: المظاهرات الغير منظمة وأعمال الشغب والتمرد وحرب العصابات التي تقوم بها جماعات غير منضبطة بقصد خلق أجواء من الفوضى والفتنة تحتاج حتماً إلى من يقمعها حتى لا تتسبب بالأذى للناس. وهناك فرق كبير بين الثورة على الظلم وحكم الطغيان، وبين أحداث الشغب الموجهة باتجاه إشعال الفتن لخدمة مصالح فئوية أو خارجية.

"وكثيراً ما يتم الخلط بين مفهوم العنف السياسي وعدة مفاهيم أخرى أبرزها الإرهاب السياسي، والصراع السياسي، وعدم الاستقرار السياسي. الإرهاب السياسي هو سلوك رمزي يقوم على أساس الاستخدام المنظم للعنف أو التهديد باستخدامه، بشكل يترتب عليه خلق حالة نفسية من الخوف والرهبة وعدم الشعور بالأمان لدى المستهدفين، وذلك لتحقيق أهداف سياسية. وتتمثل عناصر المفهوم طبقاً للتعريف السابق فيما يلي: " إن الإرهاب عمل رمزي، فهو لا يستهدف الضحية في ذاتها وحسب، ولكن النظام أو الجماعة أو الدولة التي تنتمي إليها. والهدف الأساسي منه هو إحداث أثر نفسي سلبي يتمثل في حالة من الخوف والقلق والرعب والتوتر لدى المستهدفين، حيث يمكن في إطارها التأثير في توجهاتهم وسياساتهم. ولا يقتصر حصول الأحداث الإرهابية على جماعات دون أُخرى، فكثير من الدول الكبرى الأعضاء في المنظمة الدولية تمارس الإرهاب السياسي، وتقمع شعوب في دول أضعف منها وتهيمن عليها. وهذه الدول لا تُحاسب على ما تفعل، ولا تُتَخذ ضدها ممارسات قانونية، بينما

يتم محاكمة أي دولة من دول العالم الثالث إذا قامت بعمل مشابه، أو ربما أقل خطورة بكثير من ممارسات الدول الكبرى.

وأكبر شاهد على أساس ما يحصل في دول العالم من تصفيات واغتيالات وتعديات على الحقوق هو التاريخ. مثلاً: المسألة الليبية تم التخطيط لها منذ سنوات. "ففي العام 1984 وضع "مكتب الدراسات والبحوث" التابع لوزارة الخارجية الأمريكية تقريراً يتعلق بالمسألة الليبية وما تقوم به ليبيا من دور مناهض للسياسة الأمريكية في المنطقة، وفي 24 و 25 آذار عام 1986 شنت الطائرات الأمريكية غارات متلاحقة ضد مدينتي طرابلس وبنغازي مستهدفة في الوقت ذاته مقر الرئاسة الليبية. كما أن الإدارة الأمريكية حملت ليبيا مسؤولية تفجير ملهى ليلي في برلين ذهب ضحيته جندي أمريكي، وشنت الولايات المتحدة الأمريكية حملة سياسية نجحت من خلالها في فرض عقوبات ضد ليبيا بحجة دعم الأعمال الإرهابية وتشجيعها. ويبدوا أن هذا الأمر كان ملفقاً لأنه بعد انهيار الاتحاد السوفييتي اعترفت أجهزة المخابرات في ألمانيا الشرقية عن مسؤوليتها عن تفجير الملهى الليلي التي حملت أميركا مسؤوليته للقيادة الليبية، ثم ما لبثت واشنطن أن شنت حملة إعلامية عام 1990 ضد معمل لإنتاج المتفجرات في ليبيا بالرغم من تأكيد السلطات الليبية والشركات الأوروبية المنشئة له بأنه معمل مستحضرات كيماوية. وبالفعل تم إحراق المعمل في العام 1991." [94] وبعد غزو ليبيا وقتل زعيمها معمر القذافي بأبشع صورة تصبح المسائل التي كانت في الماضي شبه مبهمة أكثر وضوحاً بعد الذي حصل.

---

[94] النزاعات الإقليمية في نصف قرن، ص 229.

الكواكبي: يعتبر السياسة أساس **الأخلاق**:" الأخلاق أثمار بذورها الوراثة وتربتها التربية وسقياها العلم، و**القائمون عليها هم رجال الحكومة** بناءً عليه تفعل السياسة في أخلاق البشر ما تفعله العناية في إنماء الشجر." **فالسياسة الحكيمة تسعى لتنوير العقول، بينما الحاكم المستبد يسعى لإطفاء نورها**. والجهل حسب الكواكبي هو المناخ المناسب لقيام الاستبداد. والسياسة الحكيمة تتمثل بثلاثة مبادئ أساسية هي الشورى فالمشورة تبعد الحكام عن الاستبداد بالرأي. والمساواة، والاشتراكية. والاستبداد السياسي يعتمد على جهل الناس، والتباس الأمور، واستغلال الدين. وقد لاحظ الكواكبي كيف يحاول الحكام في فترات الانقسام أو الأزمات اللجوء إلى المظاهر الدينية، ورجال الدين بهدف كسب العامة من الناس. ويضيف على ذلك: " السياسيين يبنون استبدادهم على أساس من هذا القبيل، فهم يرهبون الناس بالتعالي الشخصي، ويذلونهم بالقهر والقوة وسلب الأموال حتى يجعلونهم خاضعين لهم، عاملين لأجلهم، يتمتعون بهم كأنهم نوع من الأنعام التي يشربون ألبانها ويأكلون لحومها، ويركبون ظهورها وبها يتفاخرون."

والملفت في فكر الكواكبي هو تحليله للفتن التي تجر الفوضى، فالثورات والفتن لا تقضي على الحالة التي أوجدها الحكام المستبدين، فإذا قُلع المستبد لا يعني الخلاص من هذا الداء لأن جذوره ستبقى، وأي تصرف عنيف تجاه المؤسسة الحاكمة لا يصلح الأمور. ويعتبر الكواكبي أن العلم هو البديل عن العنف، وبواسطة المعرفة يمكن إصلاح الأمور، وخلع جذور الاستبداد وبدون الوعي لا مجال للتغيير، وكل تغيير إيجابي يحصل نتيجة وعي الظروف، والأسباب. والوعي لا ينتشر إلا بوجود مصلحين ومتنورين ينشرون الوعي بين

الناس. **والاستبداد لا يقاوم بالشدة:" كي لا تكون هناك فتنة تحصد الناس حصداً**." والاستبداد إنما يُقاوم بالحكمة والوقت. " قد تحرق العامة عاصمة لأجل التشفي من أعوان المستبد. ولكنها بذلك لا تحصل على ما تريد فتقضي على جهد عملها ويظل المستبد في مكانه." فالطغاة يعملون على زرع الفتن والشك بين المواطنين، والقضاء على البارزين من أصحاب العقول، وتعويد الناس الخسة وحجب ما يعمل على تنوير الناس، وإفقار المواطنين حتى لا يهتموا إلا للبحث عن قوت يومهم. فكل من يريد أن يحرض على القتال سوف يجد الحجج التي تعمل على تعطيل الوعي وشل التفكير، وإدخال الناس في أوهام العنصرية، وأبشع ما يكون هو استغلال الدين. **أبن كثير** أيضاً لا يوافق العلماء في خلع الحاكم بالقوة. يقول: " الإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه على أصح قول العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه لما في ذلك من إثارة الفتنة، ووقع الهرج، وسفك الدماء الحرام، ونهب الأموال، وفعل الفواحش، وغير ذلك مما كل واحدة فيها من الفساد أضعاف فسقه. كما جرى مما تقدم إلى يومنا هذا." [95]

محمد عبده لا يثق بثورة الجماهير حيث رأى أن "الغوغاء عون الغاشم ويد الظالم". وخاصة إذا كانت هذه الجماهير غير مثقفة أو واعية تماماً لما يحصل.

أما **أرسطو** فالسياسة بالنسبة له هي "علم السعادة الاجتماعية" ووظيفة الدولة هي تحقيق السعادة للمواطنين وحمايتهم.

أرسطو يقول أن السياسة هي الغاية العليا، لأنها تسعى لخير الإنسان، والجميع يبتغون من كل عمل يعملونه خيراً لأنفسهم، وكل مجتمع يتكون من عناصر متنوعة من أغنياء وفقراء، ومتوسطي الحال، وحسب نوعية المجتمعات يجب أن تسن القوانين، والضرورة تقتضي بقيام سياسات متعددة، فجمهورية أفلاطون

---

[95] الطاغية ص 119.

لا يمكن أن تتحقق بنظر أرسطو، لذلك يجب أن ننظر إلى الواقع لرسم سياسات تناسب الجميع، وخير السياسات هي السياسة المعتدلة، وأفضل طبقات المجتمع هي الطبقة الوسطى، حيث يصعب على من اتصفوا بفرط الغنى أو فرط الفقر أن ينقادوا للعقل، فالذين توفرت لهم أسباب القوة والثروة يأبون الخضوع، ويعتبرون مصلحتهم فوق مصلحة الدولة، والفقراء والذين فقدوا النفوذ تعلموا الخضوع كالعبيد، وهكذا تصبح الدولة المكونة من طبقتين طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء دولة أسياد وأرقاء، وليست دولة عدالة، فحكم الأغنياء حكم فاسد، وكذلك حكم الفقراء. وخير السياسات هي السياسة المعتدلة، لأنها وحدها لا تتعرض للثورات. ويعتقد أرسطو أن هناك أناساً مهيئين بطبعهم لأن يكونوا عبيداً فهذه التفرقة موجودة بالطبيعة، كالتفرقة بين الروح والجسد، أو بين الإنسان والحيوان.

أما عند **الفارابي**، تتمثل الحكمة السياسية بتنشئة وتعليم المواطنين، وتنمية مواهبهم، والأخلاق تتشكل من خلال المعارف، فالسياسة ينبغي لها أن تعتمد على المعرفة الصائبة، كما أن المدينة الفاضلة تقوم على آراء صائبة، والعلاج الحقيقي لخراب البلد هو في توحيد السلطة، وتوحيد الرأي، وإيجاد عقيدة تقوم على البراهين اليقينية لا على المجادلات الكلامية. فالمجادلات لم تزد الناس إلا فرقة، ولم تستطع أن توحد شملهم. وبناء الآراء على أساس الظنون يعني الضلالة والفوضى الاجتماعية، والانقياد الأعمى باتجاه العنف. بالنسبة للفارابي لا يوجد مدينة خيرة أو مدينة شريرة بطبعها بل بإرادة أهلها، فإذا اجتمع أهلها على الخير تكون خيرة وإذا اجتمعوا على الشر تكون شريرة، وأهل المدينة الفاضلة يبحثون عن السعادة الحقيقية وبما أن السعادة الحقيقية غير متوفرة في العالم الأرضي، فالسعادة الحقيقية هي في العالم الإلهي. وليس باستطاعة كل إنسان أن يكون رئيس للمدينة الفاضلة، فالرئاسة تتحقق

بشيئين أحدهما أن يكون الرئيس صاحب مخيلة كاملة تسمح له بالاتصال بالعقل الفعال، وذلك يكون بالفطرة والطبع، ولقد وضع الفارابي شرط أساسي لرئاسة المدينة الفاضلة هي أن يتوفر في الرئيس المخيلة الكاملة في كل ما يتعلق بالمجتمع والأفراد وما يحدث لهم. وإذا لم يكن الرئيس يعرف الفلسفة النظرية التي تؤدي إلى الطريق القويم لا يمكن للمدينة أن تزدهر، بل ستهلك حتماً بعد مدة.

opeikan.com